الرمز في شعر صلاح عبد الصبور
المصدر و الدلالة

الطالب في قسم الدكتوراه :صفو عبد الحق
جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان

ملخص:
كان للرّمز حضور قوي في الشعر العربي المعاصر،بعد أن تفنن الشعراء في توظيف أنماط مختلفة منه تبعا لاختلاف التجارب والمواقف ،مبتعدين بذلك قدر الإمكان عن الوضوح والتحديد . واللغة العادية بقواعدها المألوفة تقف عاجزةً أمام استيعاب التجارب المعقدة الغامضة ،فكان لزاما اختيار أسلوب غير مباشر يخترق المألوف من التعابير المباشرة ،ويتجاوز المعنى البسيط إلى المعقد . و من ثم يعتبر ميلاد الرمز إيذانا بفتح حضاريّ عظيم في عالم الادب حق لمعشر الشعراء أن يتباهوا به،لأنهم بلغوا به درجة من الكشف لايرقى إليها إلا المرسلون.

الكلمات المفتاحية: الرمز ، الشعراء ، اللغة ، التجارب.

مقدمة:

تُشكّل الحالات النفسية من حزن وحب وطموح في معرفة الحقيقة المحور الذي يدور عليه الرمز في معظم قصائد الشعر ،ومن البديهي أن هذه الرموز وإن اتفقت من حيث أنها جميعا ذات إيحاءات نفسية ، فإنها تتفاوت من حيث منا بعها و أشكالها , فتارة يستمد الشاعر رموزه من قلب الواقع تبدو للوهلة الأولى قريبة الغور، لكنها لا تخلو – أحيانا – من إيحاءات ذاتية بعيدة كالتصوير – في مطلع قصيدته "رحلة في الليل"– ثلة رفاق الذين يلتقون كل مساء على لعبة الشطرنج ، فتلك الصورة توحي بمدلولها القريب بالفراغ والسأم اللذين يقتلهما الصحاب بتلك الجلسة الليلية الرتيبة.

ويتكرر إمتياج الشاعر من نثريات الواقع لتشكيل صورة ورموز في قصائد شنق "زهران" و" أبي" و"الناس في بلادي "وغيرها وفيها جميعا يحاول استغلال بساطة الصورة واللغة والحوار في إثارة بعض الإيحاءات(1).

فعبد الصبور يعمد من خلال بعض قصائده إلى التّعبير عن مختلف الحالات النفسية التي يشعر بها ونجد ه استقى رموزه من الطبيعة باتخاذه فصول العام في قصيدته "أغنية الشتاء "رموزا لحالات الشعور المختلفة ،فالشتاء يوحي ببرودة المشاعر والخريف ينذر بذبولها والصيف يشير إلى انقضائها(2).

1) مصادر الرمز:

أ- تراث الشعر العالمي :وهو يمثل المنبع الأساسي الذي ترتكز إليه رموز الشاعر وبخاصة ما يرجع منها إلى قراءته وتمثله أحيانا ومحاكاته أحيانا أخرى للنماذج الرمزية في شعر اليوت(3).

ب- التراث الصوفي: ويتمثل خاصة في تصويره لبعض النماذج البشرية ذات الإيحاءات الصوفية " كبشر الحافي "في قصيدته" مذكرات الصوفي" بشر الحافي وكالشيخ "محي الدين " في قصيدته "رسالة إلى صديقة"

أما " أغنية ولاء" ففيها تمتزج رموز التصوف بالرموز الدينية العامة "كالخروج "و"الإجرام" و"العشق"و"الشهادة" من أجل الإيحاء بمدى ما يكنه الشاعر نحوالحب أو الشعر وكل منها يصح مادة للتصوف الذي يشبه مجاهدة العابد في أداء فرضه الديني(4).

2) التنوع والدلالة:

إن الحزن والحب والطموح الإنساني إلى الحقيقة ثالوث متعدد الأوجه تكاد تدور عليه معظم رموز الشاعر صلاح عبد الصبور حيث اهتم بالتراث مستعيرا مصطلحات وقصص وحكايات فولكلورية في مذاكرات" "الملك عجيب بن خصيب" (6).و مستعينا بشخصيات تعمل على تكثيف المعنى وتعميق الأبعاد النفسية ،وإثراء القصيدة بمدلولات تضرب في عمق النفس البشرية الإنسانية بعيدا عن المباشرة مع إثارة العديد من الانفعالات التي تشحذ الذهن والوجدان معا ، وما يحمله هذا التصوير من بعد نفسيّ ودلالي، فنجده يعّبر عن ضياع الإنسان المعاصر وهموم العصر تارة ، والسعي وراء معرفة الحقيقة تارة أخرى وإلى الصفاء الروحي واليقيني والخلاص. وطورا يحكي الشاعر في قصيدته "رحلة في الليل"قصة ضياع الشخصية العربية في حياتها المعاصرة كونها تشبه حكاية ضياع السندباد في بحر العدم ،مستخدما رموزا من عالم التاريخ والفلسفة والدين والخرافة والأساطير، فمن التاريخ استخدم رمز التتار(7) ،الدال على عناصر القوى المهاجمة لحصون الأمة العربية إذ حشد في قصيدته تلك ستا وثلاثين كلمة كلها تدل على معاني الدمار والتحطم والبكاء والهول و الكريهة والصديد والجوع والعطش والإظلام الذي مُني به العرب في مكارههم الحديثة:

هجم التتَّار
ورَمَوا مدينتنا العريقَة بالدمارْ (8)
رجعت كتائبنا ممزقةً وقد حَمِي النّهارْ
الرايةُ السوداءُ ، والجرحى، وقافلةُ موات
الطلبةُ والجوفاءُ والخطوُ الذليلُ بلا التفاتْ .

وتعد كلمة "التتار" مفتاح الحركة الشعرية في القصيدة فهي ترمز إلى العود ذي الشّغب وإلى الانحلال ذي التدمير والقذارة ذي الأفكار الهمجية والآراء القاتلة والسموم العميقة التي ينفثها في صدور العرب .وتتنوع مصادر النموذج التراثي في الشعر الحديث طبقا لطبيعة التجربة الشعرية ،ثم تبعا لفلسفة الشاعر في الوعي بجدلية التراثي والمعاصر ،و كذا نوع ثقافته التي تلون هذا الوعي.

فمن النماذج ما يرجع إلى الموروث الشعبي ومنها ما يستقيه الشاعر من التراث الديني أو الصوفي ومنها ما يكون ذا أصل تاريخي ومنها ما يرجع إلى أساطير .

أ- الرمز الصوفي : إن الشعر هو الأداة الناطقة ، والمرآة العاكسة للمجتمع بكل ما فيه من أقراح، وأفراح ، ومساوئ ، ومحاسن ، وإذا ما اجتمع كل من العقيدة و الفن في قالب فنّي صرف غايته الأولى تبليغ رسالة سامية تهدف إلى المساهمة في بناء مجتمع سليم والسعي إلى موعظة الناس لإبعادهم عن عبث الحياة وعلائق الدنيا التي نتج عنها ما يسمى بالتراث الصوفي ، أو النزعة الصوفية .

واعتنق هذا التيار كثيرا من الشعراء المحدثين كصلاح عبد الصبور الذي أثارت قصائده قضايا فكرية وفلسفية عديدة حاول من خلالها الإجابة عن تلك التساؤلات الحائرة التي شغلته طيلة حياته(9)وهو بذلك رسول نفسه ورسول الناس ، فشعره بمثابة تمرد على الواقع وسعي وراء جوهر الحقيقة. ومن هنا ندرك سرّ اهتمام الشاعر بالتراث الصوفي حيث جعله عماد أشعاره موظفا العديد من رموز المتصوفة .

سعى صلاح عبد الصبور في بعض رموزه لبناء قناع معبّر يعينه على تجسيد تجربته الذهنية والوجدانية تجسيدا دراميا إذْ " كانت قصيدة القناع هي مدخله إلى عالم الدراما الشعرية"(10)

فقد استهوته بعض نماذج المتصوفة ومواقفها المثيرة منتزعا بعضها من حركتها التاريخيةمعيدا كتابتها بجعلها رموزا شاهدة على فوضى الحياة المعاصرة ،ومأساة حياة الإنسان

العربي المعاصر .

وقد وجد عبد الصبور في "بشر الحافي " مثلا رمزيا طافحا بالأسى ،والحلم ،والحالات والبراءة والصفاء القاسي كان هذا الرمز مفعما بثراء روح وشجن لاذع انه شخصية تمتلئ بدلالة حارة وتلتقي مع مزاجه الناضج حزنا .

وقد استلهم صلاح عبد الصبور هذه الشخصية "بشر بن الحارث " في قصيدته له "مذكرات بشر الحافي"متحدثا من خلالها عما يشغله فكريا وقد مهّد لها بالقول: "أبو نصر بشر بن الحارث كان قد طلب الحديث وسمع سماعا كثيرا ثم ومال إلى التصوف ومشى يوما في السوق فأفزعه الناس فخلع نعليه ووضعهما تحت إبطيه وانطلق يجري في الرمضاء فلم يدركه احد..."(11) .

ولعلّ في هذه السُّطور ما يعكس موقفاً اجتماعيا معيَّنا .

و توظيف الشاعر هذه الشخصية الصوفية جعلها تصطدم بالواقع ،وتناقضاته ،وما ينطوي عليه من هموم تجسيداللحياة المعاصرة التي هي بالنسبة لعبدالصبور غابة شديدة الضراوة و هاجسا دائما وكل ذلك يتخفى في ثنايا شعرالذي يمنحه نبرته الرمادية .

لذلك فان فإن "بشر الحافي"(12) ذلك المتخفي في المتصوف القلق المذعور من بشاعة هذا العالم ووحشته كان قناعا فعالا ,وكان في الوقت نفسه رمزا للإنسان البسيط ورمزا لشخصية صلاح عبد الصبور القلقة .

كما نرى أيضا في هذه الشخصية تعبيرا عن انصرام الأواصر الإنسانية بين الناس ،حيث أصبحوا كالوحوش يأكل بعضهم بعضا ويكون فيها البقاء للأقوى فنراه يقول(13) :

قد جاء ليبقر بطن الإنسان الكلب .

ويمتص نخاع الإنسان الثعلب .

قل أين إنسان أين إنسان

لقد غاص عبد الصبور من خلال هذه الشخصية في رحم الواقع المعقد الألوان والمواقف لا يملك الإنسان إلا أن يبحث عن تلك الحقيقة وذلك شأنه – عبد الصبور– الذي ينوء تحت عبء البحث عن المعرفة واليقين ،لكن ذلك البحث يغلفه كثير من الحزن والقلق الذي نحسه من خلال حيرة "بشر " في افتقاد الإنسان معنى الاجتماع الإنساني . إنه " قلق البحث عن معنى عميق للحياة قلق الإنسان الذي يريد أن يتجاوز الوضع الراهن للحياة حتى يصل إلى مستوى أكثر قيمة" (14).

وتتكرر طواعية النماذج الصوفية عند الشاعر، وتكتسي المعاناة من خلالها عمقا حين يستعير شخصية "محي الدين ابن العربي" في قصيدة "رسالة إلى صديقة" ليعبر بها عن توقه إلى حالة الوجد والصفاء التي تبقى في حيز الحلم حيث رأى الشيخ في منامه مسافرا في روضة الحلول في الذات الإلهية ، وقد أشار إلى نصيحة" الشيخ " له وهي عدم البوح بسرّ علاقته الإلهية لأن الوجد يعقد اللِّسان والكلام و تكون سقطه الإنسان ،فالشيخ" محي الدين" في القصيدة يموت ،وفي موته تتجلَّى مأساة الشاعر لأنَّ في ذلك نذيرا بالانصرام والأواصر الرُّوحية التي أرادها الشاعر

أن تصله بالسماء فيقول(15) :

ومات شيخنا العجوزُ عام الوباء

وصدقيني، حين ماتَ فاح ريحٌ طيبْ

من جِسمه السليبْ

وطار نعشُه ،وضجَّتْ النساءُ بالدعاءِ والنحيب

بكيتُه، فقد تَصرَّمتْ بموتِهِ أواصِر الصفاء
ما بيني قلبي اللجوحِ والسماء
بالأمس زراني ، و وجهُهُ السمينُ يستديرْ
... مثلَ دينار ذهبْ
و مقلتاهُ حُلوَتان ... جرَّتانِ من عَسَل

وتعكس هذه العلاقة المنصرمة عجز الشاعر عن معاينة المطلق، وتوحي كذلك بغموض ماهو كائن في المجهول ممّا لا يستطيع أن تستوعبه اللُّغة العادية ,وبذلك ندرك سرَّ تحوُّل الشاعر فيما بعد إلى الدراما الشعرية هي أفضل وسيط للتعبير عن الواقع .

إن استعانة صلاح عبد الصبور بالمعجم الصوفي واستخدامه للمصطلحات والرموز الصوفية يبرز مدى تأثره العميق بالتراث الصوفي واعتناقه له رغم"أن الشاعر فكر في التصوف لموقف إرضاء بما هو كائن وكترويض للنفس على مجاهدة الماديات اليومية"(16) .

[ب- الرمز الأسطوري:

أضحت الأسطورة اليوم إحدى العناصر الأساسية التي تشكل الخطاب الشّعري، إذ أنها تعبّر عن مواقف وأبعاد يهدف إليها الشاعر.

وهذا ما يبيّن لنا أن علاقة الرمز بالأسطورة متكاملة في عملية بناء العمل الأدبي ،فالأسطورة تشكّل عمق النّص في مضمونه فهي تمثّل الفكرة التي يقوم عليها النص ،أما الرمز فهو يشكل العمق الأسلوبي، والفنّي تبعا لبراعة الأديب في حسن توظيف الرمز للإحالة على الفكرة المقصودة ،وقد تكون هذه الفكرة أسطورة وهي بدورها تحيل على رمز آخر .

فالأسطورة عبارة عن فكرة لها معانٍ متداخلة مركبة وتحليلها يؤدي إلى دلالة معينة أمَّا الرمز فهو عبارة عن أسلوب بسيط ينهجغالبا الوصف ، و معظم الرموز تحمل إيحاءًا وليس شرطا أن تكون لها دلالة .

ومن هنا يبرز أن للغة الرمزية دوراً هاما في مساعدة القارئ على إمكانية تأويل النَّص ، والتأويل لا يحتمل الخطأ أبدا بل مصيب دائما لأنّه لا يكون في الحقيقة إلا تعبيرا عن باطن المؤول(17).

وقد عاد استخدام الشَّاعر الحديث الأسطورة رمزا منهجيا إلى أن أصبحت القصيدة الشعرية ذات بناء درامي يشتمل على حشد كبير من تلك الأشياء الجاهزة التي تعيش في واقع الشاعر النّفسي وتجتمع و تنضَّم ،ويؤلف بينها ذلك الإبداع الفنّي الجديد ليُخرج منها عملا شِّعريا ضخمًا ، ونجد فيها أن الأسطورة تمثل معنى ومنهجا، من شأنهما خلق عالما تسيطر عليه الشُّحنات العاطفية الشعورية.

وبظهور جيل "أدونيس" و"بدر السياب" و"صلاح عبد الصبور" وغيرهم من الشعراء في العصر الحديث الذين استخدموا بعض الألفاظ التي تحمل إيقاعا أسطوريا رمزيا، كما يتمثل ذلك في شعر عبد الصبور :

الحزن قد قهر القلاع جَميعا و سبَى الكنوزْ (18)

و في قوله:

أنت في القلعة تغفين على فرش الحرير (19)

وتذودين عن النَّفس السآمهْ

بالمرايا واللآلى والعطورْ .

فاستخدام هذين اللفظين " القلعة والقلاع " يأخذ بعدا رمزيا ذلك أنهما يحملان إيقاعا أسطوريا تاريخيا يرتبط بالحكايات في "ألف ليلة وليلة" وتداخلها مع الموروث في السير الشعبية(20)

وقد ضمّن الشاعر عبد الصبور الرمز الأسطوري في قصائده للإيحاء و ذلك ما يلاحظ في قصيدة له بعنوان " أغنية للقاهرة "(21) التي قال فيها :

لقاك يا مدينتي حجَّتي و مَبْكايا

لقاكِ يا مدينتي آسايا .

وحين رأيتُ من خلالِ ظلمة المطار .

نورَكِ يا مدينتي عرفتُ أنني غُلِلت.

إلى الشوارع المسفلَتَه.

إلى الميادين التي تموتُ في وقدتها .

خُضرة أيَامي .(22.)

وأنَّ ما قَدَر لي يا جرحيَ النامي

لقاكِ كلما اغتربتُ عَنْك

بروحي الظامي

تعكس القصيدة تجربة الشاعر ،وهي عودته إلى مدينته بعد الغياب ،كما يقول لنا و هو يستخدم في البداية" لقاء" ليوحي باللقاء بين و محب و حبيبته.

المراجع:

1- محمد فتوح أحمد ،الحداثة الشعرية الأصول والتجليات ،دار غريب الطباعة والنشر ،القاهرة ،2006 ص301- 302 .

2- المرجع نفسه ،ص:303 .

3- محمد فتوح أحمد ،الحداثة الشعرية الأصول والتجليات،المرجع السابق، ص: 305 .

4- المرجع نفسه، ص: 306 .

5- صلاح عبد الصبور، الديوان: مج 1-2 ،المصدر السابق ،ص: 253 .
6- نسيب نشاوي :المرجع السابق، ص:490 .
7- صلاح عبد الصبور: الديوان مج 1-2 ،المصدر السابق، ص: 14 .
8- آمنة بلعلي:أبجدية القراءة النقدية دراسة تطبيقية في الشعر العربي المعاصر السياب ،عبد الصبور ،خليل حاوي أدونيس ،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، 1995 ،ص: 14 .
9. صلاح عبد الصبور :الديوان مج3 ،المصدر السابق ،ص:18
10- أمنة بلعلي:المرجع السابق، ص: 61 .
11- صلاح عبد الصبور :الديوان ،مج1-2 ص: 268 .
12-المصدر نفسه ،ص: 269 .
13- أمنة بلعلي:المرجع السابق، ص: 62 .
14- أمنة بلعلي:المرجع السابق ،ص: 79-80 .
15- السعيد الورقي: لغة الشعر العربي الحديث مقوماتها الفنية وطاقتها الإبداعية، دار المعرفة الجامعية، 2005 ص: 261
16- عاطف جودة نصر:الرمز الشعري عند الصوفية ،دار الأندلس للطباعة والنشر ،ط1 ،بيروت ،1978،ص: 39-40 .
17- صلاح عبد الصبور :مج 1-2 ،المصدر السابق، ص: 38
18-المصدر نفسه ،ص: 65
19- فايز داية:علم الدلالة العربي، النظرية والتطبيق دراسة تاريخية تأصلية نقدية، دار الفكر المعاصر، بيروت ، ط2 ،1996 ، ص: 465 .
20- صلاح عبد الصبور : الديوان ،مج 1-2،المصدر السابق ،ص: 197
21- صلاح عبد الصبور ،الديوان ،مج 1-2،ص: 198
22- المرجع نفسه ،ص: 197